رضوان السيد ومسألة داري الإسلام والحرب

د. محمد الناصري
باحث في الفكر الإسلامي وحوار الأديان والحضارات

تقديم

يعد موضوع تقسيم المعمورة على قدر كبير من الخطورة لارتباطه بالتصور الإسلامي لجغرافيا العالم؛ إذ يمثل أحد أهم موضوعات الفقه السياسي الإسلامي، كما يشكل أساس التصور الفقهي للعلاقات الدولية، وتعلقه بمسائل الجهاد، وأحكام الأقليات الدينية..

وخطورته تكمن، أيضا، في أنه استمر في تأزيم العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي؛ فقد استند بعض الغربيين[1] في اتهامهم للإسلام بالعنف، ووصفه بالتطرف وأنه دين تنابذي إلغائي، على التراث الفقهي المتعلق بمسألة "دار الإسلام" و"دار الحرب"، ففي دراسته عن "الاكتشاف الإسلامي لأوروبا The Muslim discovery of Europe يتحدث برناردلويس[2] في الفصل الثاني منها

1. هناك لفيف من الباحثين والأكاديميين من مفكري ومنظري المجتمع الغربي عامة والأمريكي خاصة الذين يدَّعون ذلك، أمثال: دافلين بايب، مارتن كارمر، برنارد لويس، جيري فالوب، فرانكلين غراهام، وبان روبرنسون وصحافيون أمثال: جيم هوغلاند وجوديت ميلي، واميرسون وتشارلز وغيرهم...
2. هو أشهر مستشرق في الغرب حاليا بعد موت جاك بيرك ومكسيم رودنسون، ولد برنارد لويس في عام 1916، وبدأ ينشر مؤلفاته عام 1937، ومنذ ذلك التاريخ نشر عدة مؤلفات حول العالم الإسلامي، وقد أقام في الولايات المتحدة من عام 1974، بعد أن انتقل إليها من بريطانيا، وهو متخصص في

عن الرؤية الإسلامية للعالم، فيوضح أن المسلمين يقسمون العالم إلى أقاليم، وهذه الأقاليم تنقسم إلى دار الإسلام، وهي التي يسكنها المسلمون الذين تحكمهم الشريعة الإسلامية في إطار دولة واحدة، وحاكم واحد ويعبدون إلها واحدا، ولهذا يجب أن يسود العالم قانون واحد، وهو الشريعة الإسلامية، وأن على جميع البشر قبول الإسلام أو الخضوع للنظام الإسلامي، وأن الجهاد من الواجبات الدينية الإسلامية التي يجب القيام بها بصفة مستمرة لحفظ النظام الإسلامي.

وفي مقابل دار الإسلام، يقول برنارد لويس، توجد دار الحرب، وهي الأقاليم التي تقع خارج نطاق الأمة الإسلامية، والجهاد يعد أعظم جزء في الشريعة الإسلامية، وهذا ما نلمسه في القرون الأولى في الإسلام حينما واتت الفرصة الجنود العرب في هجومهم على فرنسا وبيزنطة والصين والهند، وأن المسلمين ينظرون إلى غير المؤمنين كما يقول الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، باعتبار أن "الكفار أمة واحدة" وينقسمون إلى الكفار، وهؤلاء إما أن يسلموا أو يقتلوا، أما الطائفة الثانية فأهل الكتاب من اليهود والمسيحيين من أصحاب الرسالات المحرفة يميزون بين الإسلام أو القتال أو الجزية، والذين يدفعون الجزية يسمون أهل ذمة.

وطبقا لهذا التقسيم بين دار الإسلام ودار الحرب، يضيف برنارد لويس، فإن المسلمين ينظرون إلى المجتمع الغربي على أن دار الحرب يجب قتالهم عن طريق الجهاد الذي لم يتوقف طوال التاريخ، وذلك حتى يعم الإسلام الأرض[1]"[2]."

المسألة التركية، يعتبر من كبار المختصين بتاريخ الإسلام والشعوب العربية والإسلامية من أهم مؤلفاته: **أصول الإسماعيلية، عالم الإسلام، الإسلام والعالم العربي، كيف حدث الخلل؟ أزمة الإسلام، اللغة السياسية في الإسلام، أين الخطأ؟**

1. Lewis, Bernard, the Muslim discovery of Europe, London, 1982, p60-61.

2. نفس الرأي نجده لدى المستشرق الاسكتلندي هاملتون الكسندر روسكين جب HA.R.GIBB في كتابه الإسلام إلى أين؟ إذ ذكر في مقدمته أن التصور العام لدى المسلمين فيما يخص علاقاتهم مع الآخرين يقوم على مفهوم دار الإسلام التي تكون في حالة حرب مستمرة على الصعيد الروحي والمادي مع بقية العالم: Wither Islam, p20 وأصبح هذا الكتاب، فيما بعد، مرجعا رئيسيا للباحثين في شؤون الإسلام في الشرق الأوسط، واندس هذا المفهوم في بعض الدراسات الاستشراقية دون مناقشة أو تعقيب باعتبار الثقة الحكمية التي يحظى بها مؤلف الكتاب انظر: عبد القادر التيجاني **حول النموذج التفسيري لعلاقات المسلمين الخارجية**، م التجديد، ع5 فبراير 1999، ص77 وما بعدها. ولا يرى المستشرقون التقليديون

الملاحظ أن الفهم غير الدقيق لمسألة "دار الإسلام" و"دار الحرب"، أسهم في تشكيل الموقف السلبي للعالم والمجتمع الدولي من الإسلام والمسلمين عموما، ولا يمكن التقليل من تأثير هذا الاتجاه في حملات التخويف السائدة في معظم المجتمعات الغربية.

وبالرغم من خطورة النظرة الغربية عن الإسلام والمسلمين إلا أن المشكلة الأكثر خطورة تتمثل في الظلال القاتمة التي ألقاها هذا التقسيم على كثير من الأحداث السياسية، والتي أثرت سلبا على العالم الإسلامي، الأمر الذي جعلنا نسهم في ترسيخ هذه الصورة القاتمة والعدائية عن الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية؛ ومن المفارقات أن دعاة الأصولية الإسلامية يوافقون الاستشراف في تشديده على النظرة الثنائية للعالم اعتقادا منهم أن لها أصلا في الإسلام.

وربما يسعفنا على تجاوز هذا الوضع، مراجعة التراث[1] الفقهي المتعلق بمسألة دار الإسلام، ودار الحرب، مراجعة عميقة تكشف حيثيات نشوء فكرة تقسيم العالم إلى دور، وتعيد مرة أخرى صياغة المنظور الفقهي لتقسيم العالم بناء على رؤية واقعية لصورة العالم الراهن، ومن دون ذلك لا يمكننا تحقيق أي تقدم على صعيد البحث الفقهي المتعلق بحال العلاقات الدولية، وعلى صعيد التكيف مع العالم الحديث بما يجعل الأحكام واقعية وقابلة للتطبيق[2].

ضيرا في الاعتماد الكلي على نظرة الدارين في تفسير العلاقات الخارجية للدول الإسلامية، ولا يمكن التقليل من تأثير هذا الاتجاه في حملات التخويف ضد الإسلام السائدة في معظم المجتمعات الغربية.

1. لم يتجاوز النقد الموجه للتراث الفقهي المتعلق بتقسيم المعمورة حد الكشف عن الخلفية التاريخية التي أسست لهذا التراث، وما استطاعت الدراسات في هذا الموضوع (للاطلاع على نماذج منها انظر م. إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الثانية عشر، ع45، (1427هـ/ 2006م). إلى اليوم التجاوز إلى الكشف عن "التصور الإسلامي للمعمورة" خارج إطار هذا التراث الفقهي التاريخي، فأقصى ما حققته هو إثبات التاريخية، وتعديل بعض المفاهيم الخاصة بهذا التقييم، وذلك في محاولة لتجنب المشكلات الكثيرة التي خلقتها المفاهيم التراثية التقليدية عن العالم وتقسيم المعمورة.

2. ياسر لطفي العلي، **الجغرافيا الفقهية للعالم**، من صورة التاريخ إلى صورة الواقع المعاصر، م. إسلامية المعرفة، م، س، ع45، ص99-100.

وعيا بواقع العالم الإسلامي المتخبط في مشاكل اقتصادية وسياسية عديدة، وإيمانا بقدرة الإسلام على فرض نموذجه الحضاري بطرق سلمية حضارية في مناخ ثقافي عالمي زاخر بالتنوع، قام مجموعة من المفكرين والدعاة المسلمين المعاصرين بتطوير مفاهيم جديدة منبثقة من روح المبادئ الإسلامية الكبرى للتركيز من جهة على عالمية الإسلام، ومن جهة أخرى التأكيد على مسؤولية المسلمين في تجسيد القيم والمبادئ الإسلامية على أرض الواقع، ثم دورهم الرئيس في تعريف الناس على مستوى العالم بالإسلام دون قسر أو إكراه.

ولقد كان الأستاذ رضوان السيد رجلا من رجالات هذه المهمة الكبرى بامتياز، ليس لما تجلى من رحيق أفكاره وتأملاته على هذا المستوى فحسب، بل إن نزوعه الإنساني في تفسيره لمعاني القرآن الكريم قد أمدنا بإطار مرجعي لنمط العلاقة مع المخالف دينيا والنقيض عقيديا، وما هي القيم والمفاهيم الضابطة والحاكمة لهذه العلاقة؟ وكيف السبيل إلى تأسيس علاقة أفضل يطبعها السلم والاعتراف والاحترام المتبادلين؟

لقد أخذت مسألة دار الحرب ودار الإسلام من فكر أستاذنا رضوان اهتماما بالغا، يظهر ذلك من خلال البحوث التي تناول فيها المسألة، فمع أنه لم يفرد المسألة بمؤلف خاص إلا أنه ناقشها منبها إلى ضرورة مراجعة عميقة للأدبيات المرتبطة بها في دراسات مستقلة[1] وأحيانا في ثنايا بعض كتبه ومقالاته[2]. ومن أهم تلك الدراسات:

كتب السير مسألة داري الحرب والسلم: نموذج كتاب "السير" لمحمد النفس الزكية. وقد استعرض أستاذنا رضوان في دراساته هذه آراء محمد النفس الزكية في

1. كتب السير ومسألة داري الحرب والسلم: نموذج كتاب **"السير"** لمحمد النفس الزكية. ضمن كتاب: **التشريع الدولي في الإسلام**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط سلسلة ندوات ومناظرات رقم 70 ط1، 1997.
ـ **الدار والهجرة وأحكامها** عند ابن المرتضى، م. الاجتهاد س3، ع12، صيف 1991.
ـ **محمد النفس الزكية وسيرته في أهل البغي**، م. كلية الآداب، جامعة صنعاء، ع11، 1990.
2. **التعدد التسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية**، م. التسامح ع12، (1426هـ/ 2005م).

مسائل دار الحرب، كما بين وجوه الاتفاق والاختلاف بين النفس الزكية وسائر الفقهاء المسلمين ممن عاصروه أو قاربوا عصره مثل؛ أبي حنيفة والأوزاعي والفزاري ومالك بن أنس والشافعي.

فمحمد النفس الزكية يقول بوجود هوية واضحة لدار الحرب؛ فهي دار تسود فيها أحكام مخالفة لأحكام دار الإسلام، ولا تسري عليها وعلى أهلها أحكام دار الإسلام. وبسبب وضوح الهوية المغايرة هذه، فيمكن أن تكون بينها وبين دار الإسلام علاقات متعددة متنوعة لما تمتع به كل منهما من استقلالية. هناك حالة الهدنة الفعلية، ولها أحكامها؛ وهناك حالة الموادعة والعهد بين الدارين؛ وهناك وأخيرا حالة الحرب.

ومع أنه في حالة الحرب، تكون الدار المعادية دار إباحة؛ فإن هناك التزامات على دار الإسلام ليس تجاه تلك الدار، بل تجاه شرعة الحرب التي سنها القرآن وسلوك الرسول، صلى الله عليه وسلم، واتجاهات الخلفاء الأوائل، وذلك مثل عدم قتل الأسرى، وعدم المثلة في البشر والدواب، وصيانة حياة النساء والأطفال أثناء القتال[1]."

"فالمعتبر في هذه الحالة؛ الدار لا الإيمان أو الإسلام؛ فدار الإسلام وحدة واحدة، كما أن دار الحرب كذلك وحدة واحدة، وتنقطع الأحكام بانقطاع الدار. ويورد السيد قولا لمحمد النفس الزكية يستدل به على صحة ذلك؛ إذ يقول النفس الزكية: "فلو أسلم عبد لرجل وبقي بدار الحرب، ثم أسلم مولاه؛ فإنه يبقى مملوكا له ما داما بدار واحدة، بخلاف ما إذا أسلم العبد وفارق دار الحرب إلى دار الإسلام فإنه يصبح حرا حتى لو لحق به مولاه وأسلم من بعده،لاختلاف الدارين لفترة معينة[2]."

وعن الهدف من عرضه لآراء محمد النفس الزكية في مسائل دار الحرب، يصرح رضوان السيد بأنه يندرج في سياق محاولة الوصول إلى إجابة شافية على سؤالين

1. رضوان السيد، **كتب السير**، م، س، ص179.

2. المرجع نفسه، ص174.

أساسيين: متى ولماذا ظهرت "منظومة الدارين"؟ وهل هي من صنع الدولة أم الفقهاء أو الفريقين معا؟[1].

ويمكن القول أن السيد يعتبر مفهوم الدار مفهوما تراثيا، أنتجه الفقهاء اجتهادا في ضوء تحولات الاجتماع السياسي الإسلامي التاريخي، سواء في علاقة السلطة بالمجتمع، أم في تجمع المسلمين السياسي بالعالم والدول من حولهم، وهو بذلك مفهوم لبيان رؤية المسلمين لأنفسهم وعلاقتهم بالعالم آنذاك، تبلور منذ أواخر القرن الأول الهجري[2].

وبحسب السيد، فإن هذا التصور للإسلام ومهماته في العالم، والذي كان وراء ظهور منظومة دار الإسلام ودار الحرب، ما كان تصوراً مسلَّماً به لدى جمهور الفقهاء حتى أواخر القرن الثاني الهجري. فهناك مجموعة من الفقهاء المكيين والمدنيين في القرن الأول والثاني ما كانت ترى فرضية الجهاد. أبرز هؤلاء سعيد بن المسيب (94هـ/ 712م) الذي ينقل عنه عبد الرزاق الصنعاني (211هـ/ 826م) في كتابه المصنف تفضيله الرباط والمحارسة على الحرب الهجومية. أما عطاء بن أبي رباح (114هـ/ 732م)، وعمرو بن دينار (172هـ/ 774م) فإنهما لم يكونا يريان فرضية الجهاد.

في حين كان ابن جريج (150هـ/ 767م) يقدّم الحجّ والعمرة على الجهاد في الأجر. ويمتدّ هذا الخطّ من دعاة المسالمة والمدافعة وحسب، إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عبر سفيان الثوري فتذكر المصادر عنه ذهابه إلى أن الغزو يعطّل أعمال العبادة الأخرى. وكان الفضيل ابن عياض يرى أنّ المجاورة في الحرم أفضل من الجهاد. بينما كان مالك بن أنس لا يرى الذهاب للجهاد إلاّ إذا هوجمت ديار المسلمين. ثم إنه ما كان يجيز القتال قبل الدعوة، كما كان لا يرى الاستقتال[3].

بناءً عليه، فرضوان السيد ما يلبث يؤكد أن مفهومي دار الحرب ودار الإسلام "تنظيم اجتهادي اشترع لتنظيم العلاقات الخارجية بين الدولة الإسلامية، والدول

1. المرجع نفسه، ص183.
2. المرجع نفسه، ص173.
3. المرجع نفسه، ص216.

غير الإسلامية تنظيم لا يتضمن تمييزا، بل هو تقرير لأمر واقع. فالحرب التي يصح تسميتها جهادا هي الحرب الدفاعية؛ إذ علة الجهاد أو الحرب المشروعة: العدوان أو خوفه. ثم إنه رغم التسمية بدار الحرب، فأكثر الدول خارج دار الإسلام تشمل تنظيمات أخرى مثل دار الموادعة، ودار العهد، ودار الاستئمان؛ وهي جميعا تعبير عن أنواع العلاقات القائمة بين تلك الدول مع الخلافة الإسلامية. وفي كل الأحوال، ما توقفت التعاملات السلمية والتجارية بين الأفراد والفئات من تلك الدور، وبين أهل دار الإسلام حتى في حالات الحرب. وكان هؤلاء من غير المسلحين يسمون فور دخولهم دار الإسلام: المستأمنين، ويستطيعون العمل والتصرف بحرية[1].

ويذهب رضوان السيد إلى أكثر من هذا حين يعتبر البشرية كلها أمة واحدة، فهي إما "أمة الإجابة" قد اعتنقت دين الإسلام أو "أمة الدعوة"، نحن ملزمون بالتوجه إليها لدخوله. وفي هذا الصدد يقول رضوان في كتابه: "الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي" وبعد إيراده لبعض الآيات القرآنية الدالة على شمولية وعالمية الإسلام؛ يقول: "وهكذا فإنه إذا كان المؤمنون بالنبي ورسالته من العرب وأهل الكتاب هم "أمة الإجابة "، فإن العالم الإنساني كله الذي أرسل النبي إليه يشكل بمجموعه "أمة الدعوة"[2]."

وبهذا الفهم يخالف رضوان السيد فهم الجماعات الجهادية المتشددة التي تعتبر أن "أهل دار الحرب هم الحربيون، والحربي لا عصمة له في نفسه ولا في ماله بالنسبة لأهل دار الإسلام؛ لأن العصمة في الشريعة تكون بأحد أمرين، الإيمان والأمان، وليس للحربي واحد منهما[3]." و"أن العلائق بين الدارين لم تكن علائق سلم، وإنما كانت في حالة حرب معلنة[4]."

1. **التعدد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية**، م، س، ص15.
2. رضوان السيد، **الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي**، دار اقرأ ط2، (1407هـ/ 1986م)، ص41.
3. عبد الكريم زيدان، **أحكام الذميين والمستأمنين**، بيروت: مؤسسة الرسالة،ط1، (1408هـ/ 1998م)، ص18.
4. محمد الدين محمد قاسم، **التقسيم الإسلامي للمعمورة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، (1417هـ/ 1996م)، ص116.

لقد تلقف الكثير من منظري الحركات الإسلامية السياسية المتشددة هذا التصور، فعملوا على استثماره في تسويغ وتبرير القيام بالأعمال الحربية ضد غير المسلمين وشرعنتها، واعتبار أن القتال لا ينحصر بحالة العدوان على أهل الإسلام أو دعوتهم، بل شرع القتال ابتداء لإخضاع الأنظمة الكافرة لسلطان الإسلام. فاكتسبت الحركات الإسلامية الراديكالية التي اعتمدت في تصوراتها وأعمالها على الأحكام المتعلقة بالتصور التراثي الفقهي لتقسيم المعمورة صفة المشروعية للكثير من عمليات العنف التي يتم تنفيذها سواء على المستوى الداخلي (العربي والإسلامي) أم على المستوى الخارجي؛ إذ استند تنظيم الجهاد الإسلامي في مصر عام 1976 إلى مفهومي "دار الكفر" و"دار الإسلام" في مسألة انقلاب دار الإسلام دار كفر".

وهذه القراءة يفسرها رضوان السيد في كتابه "الصراع على الإسلام" بوصفها نتاج ثقافة الهوية الطهورية "وإذا كانت ثقافة الهوية من جهة ثقافة صون وحفظ للذاتية التي تتوهم تهددها، فإنها من جهة ثانية ثقافة طهورية، ثقافة المقدس والمدنس، وهي من أجل ذلك ثقافة انفصالية، إنها تحاول الانفصال عن العالم لحفظ الذات، ولكن مصدر التهديد للذات ليس محددا بحيث يمكن سحقه أو مقاومته على الأقل، إنه العالم كله، ومن أجل ذلك فإن رموز الخيرية التي تستعمل للذات (التقوى والجهاد والاستشهاد) تقابلها رموز الشر التي تدل على العالم الآخر (الجاهلية)[1]."

"وبالانتقال إلى العالمية بدأت الأحكام المتعلقة بتقسيم المعمورة تتمدد باتجاه الخارج؛ أي باتجاه العلاقات الدولية بعد أن بقيت طيلة السبعينات وحتى الثمانينيات مقصورة عموما على الوضع الداخلي وبدأ تطبيقها الأول مريعا في أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 في برجي التجارة في نيويورك (أو ما تسميه القاعدة بـ"غزوة مانهاتن")، فقد تمت شرعنة العمليات الانتحارية على أساس التقسيم الفقهي إلى "دار الحرب" و"دار الإسلام" وباعتبار أن أمريكا "دار كفر"، وجار الكفر في التراث الفقهي مطابقة لدار الحرب، وليس هناك فرق بين المصطلحين إطلاقا، وأن دماء أهل الحرب هدر أو مهدورة، هذا ما يلمح إليه خطاب أسامة بن لادن الأول زعيم تنظيم

---

1. رضوان السيد، **الصراع على الإسلام: الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية**، دار الكتاب العربي ط1، 2004.

القاعدة عقب الأحداث، بقوله: "إن هذا الحدث قد قسم العالم إلى فسطاطين، في إشارة إلى دار الحرب ودار الإسلام، كما في بيانات وخطابات أخرى[1]."

ويرى الدكتور رضوان أن هذا الفهم تجن على الإسلام وتاريخ المسلمين؛ فجماعة المسلمين في نظره "جماعة التعارف والقسط والرحمة في عالم القرن السابع الميلادي، وكان اتخاذها للهجرة النبوية 622م تأريخا لها علما على ظهور التنظيم السياسي، فتحاور وتجاور في تجربتها التاريخية الاجتماع الإنساني مع الدولة.

وقد كان أول الأنظمة ظهورا في التعامل مع غير المسلمين هو نظام أهل الذمة الذي شمل المسيحيين واليهود في البداية استنادا للقرآن، ولتجربة الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمسلمين في مجتمع الجزيرة العربية. وقد تجاوز نظام أهل ذمة المسلمين التعارف والاعتراف، إلى ما يقرب من الأخوة، بحسب ما نص عليه القرآن. وقد اعتبر الفقهاء في كتبهم أهل الذمة من أهل دار الإسلام، وضمنت الدولة لهم الحرية الدينية المتضمنة حرية العبادة والتعليم الديني، والتنظيم الديني، وحرية الحركة الاجتماعية والاقتصادية[2]."

وهذا الفهم السلمي التعارفي لطبيعة علاقة جماعة المسلمين بغيرها من الأمم؛ ليس غريبا على أستاذنا رضوان السيد، الذي ما لبث يؤكد قيامها على ست ثوابت قيمية/ أخلاقية تدعو كلها إلى التعايش السلمي والتواصل الفعلي والتعاون العملي، بغض النظر عن الجنس أو العرق أو اللون أو الدين، عن طريق التعارف في إطار وحدة الأصل ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: 13). والمبادئ الستة عنده التي تحكم العلائق بالأمم والحضارات تتمثل في: المساواة والكرامة والرحمة والتعارف والعدالة والخير العام.

القيمة الأولى: المساواة؛ التي "تستند إلى حقيقة "النفس الواحدة" التي خلقها الله، والتي تعني المساواة بين الناس من سائر الوجوه، ترتبا على أنها تعني أنهم جميعا

1. عبد الرحمان الحاج، م. إسلامية المعرفة، السنة الثانية عشر، ع45، (1427هـ/ 2006م)، ص67.
2. **التعدد والتسامح والاعتراف**، م، س، ص14.

مخلوقات لله. وهذا يقتضي من جانب المؤمن، نظرا وعملا، الابتعاد عن التمييز، والابتعاد عن الكبرياء، واعتبار حصول الأمرين كبائر فظيعة، قد توصل إلى الكفر والفساد والإفساد إن صارت قيما أو مبادئ في النظر، وليس مجرد سلوكات مخطئة[1]."

وفي إقرار القرآن لمبدأ المساواة بهذا الشكل؛ إلغاء لكل عوامل التفرقة بين الناس، فاللون والجنس والمعتقد والحظوة الاجتماعية لا مكان لها في منطق القرآن، ولا تؤثر في إنسانية الإنسان، لهذا يعد مبدأ المساواة من أهم المبادئ القرآنية التي تقوم عليها النظرية الإسلامية في مجال العلاقة مع الآخر، فبموجب هذا المبدأ يتوجب على المسلم التقيد بضوابط وقيم القرآن السامية في تعامله مع غيره من أتباع الأديان الأخرى، فلا يحقره ولا يعتدي عليه في ماله أو بدنه أو عرضه، ولا يظلمه قال صلى الله عليه وسلم: "ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه حقا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه (خصمه) يوم القيامة[2]."

إن أزمة العالم الناجمة عن غياب السلام، لا يمكن تجاوزها دون إقرار مبدأ المساواة كما حدده القرآن الكريم، الذي بموجبه تنمحي كل الفوارق العرقية والدينية واللغوية والجغرافية... ويجعل من الاختلاف والتنوع سببا للوحدة الإنسانية ومدعاة لتحقيق الاتصال والتعارف والتآلف بين البشر جميعا، وليس سببا في النزاع والتقاتل. وهو ما يؤكده الأستاذ رضوان بتنصيصه على المساواة مبدأ مقدما عن غيره في تنظيم علاقات الأمم والجماعات.

القيمة الثانية: الكرامة؛ وتتصل قيمة الكرامة بقيمة المساواة بشكل وثيق، ذلك أن الكرامة كما يعرضها القرآن هي قيمة وجودية، تتعلق بفطرة الإنسان واختصاص الله له بالعقل والاستخلاف في العالم، وتسخير إمكانيات هذا العالم له، وإقداره على الولاية فيه[3]." وأستاذنا رضوان السيد يؤكد أن الكرامة الإنسانية لكل إنسان، ولا

1. رضوان السيد، **القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات**، م. التفاهم، ع32، السنة التاسعة ربيع (1432هـ/ 2011م)، ص16.
2. **سنن أبي داود**، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم الحديث 3052.
3. المرجع نفسه، ص17.

تفاضل بين الناس في ذلك، فالتكريم عند رضوان تكريم مطلق المعنى يشمل البشر كافة.

القيمة الثالثة: الرحمة؛ وفي القرآن الكريم أن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وجعلها القيمة العليا في تعامل البشر بعضهم مع بعض، وهذا يعني أن الرحمة والنعمة من جانب الله تجاه الإنسان تنعكسان علاقات مودة ورحمة وسكينة في التعامل بين البشر، أو ينبغي أن يكون الأمر كذلك. بل إن القرآن يعد النبي والإسلام رحمة للناس ينبغي أن تتجلى في حياتهم جميعا: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: 106)[1].

القيمة الرابعة: التعارف؛ وتتصل بقيمة الرحمة قيمة التعارف: ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾. وإذ كان المفسرون المسلمون قديما، والمفكرون حديثا ما ألحقوا التعارف بالقيم الأخرى لاعتقادهم أنها نصيحة أو ندب لظهورها مرة واحدة، فإن القراءة الأعمق للقرآن تصل التعارف بالمعروف، وهو مفهوم يرد في القرآن مئات المرات.

والرحمة من جانب الإنسان تجاه أخيه الإنسان قد تفهم بطريقة فردية، أما التعارف والمعروف، فلا يمكن فهمهما إلا بطريقة شاملة؛ أي في العلاقات بين البشر على اختلاف أديانهم وثقافتهم وأخلاقهم. فالآيات القرآنية تفترض قواسم مشتركة أساسية تتمثل في المساواة والكرامة والمعروف أو التعارف، وهي القيم والمعاني التي ينبغي أن تسود في العلاقات بين الأمم ذاتها[2].

ويتحدد مضمون التعارف وفق الآية الكريمة: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا اِلى كلمة سواء بيننا وبينكمُ ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا اَربابا من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**﴾ (ءال عمران: 63)، وهو يتأسس على "وحدانية الله الخالق، والتعامل بين البشر على قدم المساواة في القيمة الإنسانية وفي الحقوق المترتبة على ذلك شكلا وموضوعا.

1. **القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات**، م، س، ص17.
2. المرجع نفسه، ص18.

والمساواة تعني أنه لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة أو لديه تفوق أخلاقي متفرد... فتأسيسا على الوحدانية في الخلق والعبادة تترتب رؤية لعالم بني الإنسان قائمة على الحرية والمساواة والندية[1]." وانطلاقا من هذا يذهب رضوان السيد إلى أنه لا يحق للموحدين ادعاء ميزة على غيرهم من الخلائق وإنما ميزتهم الوحيدة، إن صح التعبير، هي في تحولهم إن أحسنوا القيام بمسؤولياتهم إلى شهود في عالم بني الإنسان. والشهادة دعوة وحضور فضلا عن كونها مسؤولية، وهي ليست مسؤولية أخروية وحسب، وإنما هي مسؤولية دنيوية بالأساس، فأصحاب الديانات التوحيدية على السواء هم من يقع على عاتقهم تحقيق نهج التعارف وهم المسئولون عن تحريفه وسوف يسألون عن ذلك كله.

ومقصد العملية التعارفية القرآنية وغايتها الكبرى تحقيق الخيرات ﴿**ولكلّ وجهةٌ هو مولّيها فاستبقوا الخيرات**﴾ (البقرة: 147) والخير مفهوم يتسم بالعمومية والشمولية تتطابق حدوده لدى رضوان السيد مع مفهوم المعروف. وحسبما يلحظ فإن "القرآن يدعو المسلمين للتنافس مع غيرهم في استباق الخيرات دونما تحديد لتلك الخيرات باعتبارها معروفة ومشتركة بين بني البشر ولا ينفرد بها المسلمون معرفة وتحديدا" وبالتالي فليس من حق المسلمين الانفراد بتحديد القيم التي يشاركون فيها البشرية حيث أنهم ينفصلون بهذا عن بقية البشر وتتعملق لديهم أوهام الخصوصية[2].

القيمة الخامسة: العدالة؛ أما قيمة العدالة فهي ظاهرة الحضور في الخطاب القرآني، وهي تعني الاستقامة في النظر والعمل، والاستقامة والتوازن في العلاقات بين الناس. والقرآن يقرر أن الله سبحانه لا يريد ظلما للعباد، بيد أن قيمة العدل هي في الأعم الأغلب في العلاقات بين الأفراد، وفي العلاقات بين الأمم. وهي ضرورية حينما يتعلق الأمر بالكرامة والحقوق، وتفهم في سياق المساواة والرحمة، والتعارف عندما يتعلق الأمر بالأفراد أو العلاقات بين الأمم[3] فتلازم السلام والعدل وثيق

1. رضوان السيد، **الدين والمجتمع والدولة في العلاقات والمصائر والمرجعيات**، التسامح، ع17، (عمان، شتاء 2007) ص18.
2. المرجع نفسه، ص18.
3. **القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات**، م، س، ص18.

وترابط الأمن والقسط وطيد، فالعدل مفتاح السلام. إن ما يعرفه عالمنا من توتر وحروب ناجمة بالأساس عن غياب العدل، وحين نتأمل في هذا الارتباط بين السلام والعدل فلسفيا، نجد أن السلام كقيمة مطلقة لا يمكن في الواقع أن يقوم إلا على مبدأ العدل الذي يعد حسب رضوان شرطا لإخراج السلام من أزمته الحادة، فهو مفتاح للسلام الدائم.

القيمة السادسة: الخير العام؛ وخاتمة منظومة القيم القرآنية قيمة الخير العام، ومفرد الخير هو الأكثر ورودا في القرآن بعد الرحمة والرحمن والرحيم، وهو يعني الأحسن والأجمل في التفكير والفعل والتصرف. والملحوظ أن القرآن يجمع خير على خيرات عندما يتعلق الأمر بالعلاقات مع الأديان والأمم الأخرى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾. ومن الواضح أن هذه القيمة الكبرى تتعالق وتتشابك مع بقية أجزاء المنظومة مثل: الرحمة والتعارف والعدالة[1].

إن الخطاب القرآني حسب ما يلحظ رضوان "يعد المنظومة القيمية هاته، مسددة إن سادت للنظرة إلى العلاقات بين الأمم والحضارات، وأنها تحتوي على الضمانات التي تحول دون الفساد والإفساد لطبيعة الإنسان وفطرته، ولعلاقات الناس بعضهم ببعض[2]."

تلك، إذن، كانت أهم مبادئ وأصول الرؤية القرآنية للعالم، والعلاقة بين الأمم والحضارات كما استنبطها الأستاذ رضوان، وهي مبادئ عالمية لا تختص بقوم دون قوم أو جنس دون غيره أو أهل دين دون سواهم، ولكن هي للناس عامة. وإن إقامة السلام هو الهدف النهائي لتلك المبادئ والأسس، والسلام من منطلق تلك المبادئ ذو طابع إنساني عالمي. ومن تم فلا مجال للحديث عن تقسيم إسلامي للعالم، فالإنسانية أمة واحدة و العالم الإنساني كله الذي أرسل النبي إليه يشكل بمجموعه "أمة الدعوة[3]."

---

1. المرجع نفسه، ص18.
2. المرجع نفسه.
3. **الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي**، م، س، ص41.

والإسلام إسلام دعوة ورحمة وعدالة، إسلام لا يعترف بالحواجز الجغرافية فهو للعالمين دون استثناء. وبهذا الإسلام نعود للعالم فنشارك فيه ونؤثر ونغير. يقول الأستاذ رضوان: "إنّ الاقتراح على النظام الدولي، وعلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. يتطلب القابلية والقدرة على التأثير من الداخل، والتأهل للمشاركة من أجل مصالح المسلمين، ومصالح الإنسانية جمعاء. ثم إنّ هناك فرقاً شاسعاً بين إسلام الدعوة وإسلام الهوية والخصوصية. وقد كانت تجربتنا مع الخصوصية الإحيائية في نصف القرن الأخير بائسة وموحشة، فلنعد إلى إسلام الدعوة والرحمة والعدالة، ليعود إسلام العالم ليعود إلينا، فنشارك ونؤثر ونغير[1]."

خاتمة

بعد أن طرحنا على بساط البحث أهم القضايا التي أوضح رضوان السيد من خلالها موقفه من مسألة داري الحرب والإسلام، نشير إلى أن رضوان قد صاغ موقفه انطلاقا من القرآن الكريم، فجاء موقفه معتدلا متوازنا، على اعتبار أن القرآن الكريم لم يشر في آياته لتقسيم العالم إلى دارين أو أكثر..

وبتبني رضوان لهذه الرؤية القرآنية استطاع أن يرسم لواقع علاقة المسلمين بغيرهم صورة حقيقية بعيدة عن كل تعصب مقيت وعنصرية بغيضة، كما استطاع أن يستشرف المستقبل آملا في بناء مجتمع عالمي تسوده أخلاق التعارف والرحمة والعدل والمساواة والخير العام... وينبع موقف رضوان السيد هذا، بكل أبعاده وتجلياته من نزعته الإنسانية العميقة التي تستوي فيها جميع الأجناس البشرية الأمر الذي يتعارض والفهم السيئ لمسألة داري الحرب والإسلام كما تلقفته الجماعات الإسلامية المتشددة..

1. رضوان السيد، **ظهور دار الإسلام وزوالها**، م، س، ص221.